# ظاهرة كراهية الإسلام: الجذور والحلول

د/ معتز الخطيب(*)

موضوع الإسلام والغرب أو العالم الإسلامي وأوضاع المسلمين في الغرب شغل اهتمامًا كبيرًا في العقود الماضية، وخاصة منذ نهاية السبعينيات، وقد نشطت تلك الموجة مطلع الألفية الثالثة للميلاد(١). وذلك الاهتمام يرجع لاعتبارات متعددة، منها: بروز الثورة الإسلامية الإيرانية ١٩٧٩م، والجهاد في أفغانستان ١٩٨٠م، وقضية سلمان رشدي ١٩٨٦م، ثم حرب الخليج ١٩٩١م، والحرب في يوغوسلافيا السابقة ١٩٩٢م، وبروز الإسلام عاملاً سياسيًا في العالم الإسلامي(٢). وبهذا دخل الإسلام بقدر أكبر في السياسات والمجتمع الإسلامي، باعتباره قوة عالمية مؤثرة ومحتملة خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، والعنصر المهم والبارز بالإضافة إلى ما سبق هو تدفق المهاجرين المسلمين إلى بلدان الاتحاد الأوروبي منذ الستينيات، الأمر الذي فرض عليها العديد من التحديات التي سنشير لبعضها لاحقًا.

## ثلاث ملحوظات مبدئية:

علاقة الغربيين بالإسلام، أو العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب، علاقة متعددة الأبعاد مترامية الأطراف، شديدة التوتر والتنوع أيضًا، وهذا ما يجعل المتحدث فيها يقع في التردد والحيرة إزاء تركيبتها وتعقيدها، وقلّما يتم تناولها بالشمول والتركيب اللائق بها، وبالمنهجية والموضوعية الكافية. وقبل إجمال ملامح تلك العلاقة يحسن إيراد ملحوظتين أساسيتين تخصان ثنائية "الإسلام والغرب"، أولاهما: أن تلك الثنائية مغلوطة، إذ كيف تجوز المقارنة بين الإسلام بوصفه منظومة فكرية ودينية، وبين الغرب بوصفه يحيل إلى رقعة جغرافية ممتدة يثور الجدل حول تحديدها على وجه الدقة، أو

---

(*) مدير تحرير الملتقى الفكري للإبداع - دولة قطر.

(١) انظر في إجمال رؤية ومناهج تلك الكتابات الصادرة بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، في: معتز الخطيب، "الغضب الإسلامي: تفكيك العنف"، دراسة نقدية، دمشق: دار الفكر (تحت الطبع) ص١٠٩ وما بعدها.

(٢) انظر: واصف شديد، وسجورد فان كوننغسفيلد، "الصورة السلبية للإسلام والمسلمين في الغرب"، بيروت: مجلة الحياة الطيبة، عدد ٢٠، ٢٠٠٦م، ص١٥.

حتى بوصفه مفهومًا جيوستراتيجيًا.. نعم نفهم المقارنة بين الإسلام والمسيحية، أو بين الشرق أو العالم الإسلامى والغرب.

الملحوظة الثانية التى ينبغى الإشارة إليها هنا هى أنه كثيراً ما يغلب التعميم حين الحديث عن إسلام وغرب، وينزع الكاتبون من الطرفين إلى الحديث عن كتلة واحدة متجانسة متماسكة هى: "الإسلام"، أو "العالم الإسلامى"، مقابل كتلة واحدة متجانسة هى:"الغرب"، وهذا غير واقعى وتبسيطى إلى حد كبير، بل إنه بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م جرى الحديث عن أكثر من غرب، وعن انقسام الغرب على نفسه.(١)

وإذا أمكن لنا أن نضيف ملحوظة ثالثة فيمكن القول: إن تلك الصورة المتبادلة بين الشرق والغرب لكل واحد عن الآخر، اعتراها الكثير من الشوائب والتعقيدات والتشويه أيضًا، فالناظر الفاحص المدقق والمؤرخ المستقصى سيجد أن "الغرب" و"الشرق" كليهما اعتراهما كثير من الخيال وقليل من الواقع، فكما أن الغرب كامن فى رؤوسنا، كذلك الشرق كامن فى رؤوسهم. لكن كيف لنا ولهم أن نحدد -بوضوح- ما هو واقعى وما هو خيالى من فيض ذاتنا وذاتهم.(٢)

## تاريخ الصورة:

ثمة تاريخ طويل يحكم تلك العلاقة المتوترة والمتذبذبة، وقد تتبع مكسيم رودنسون الصورة الغربية عن الإسلام والمسلمين، وقسمها إلى محطات هى:

(١) انظر فى ذلك: معتز الخطيب، "ميلاد المفهوم ونهايته"، مقال منشور على موقع الجزيرة. نت. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الوعى بالعالم الإسلامى بوصفه كتلة واحدة متجانسة متضامنة، وُجد فى العصور الوسطى، فبرغم كون الانقسامات السياسية للمسلمين معروفة فى ذلك الوقت، ولكن كان هناك إدراك أنه يوجد وراء تلك الانقسامات تضامن أساسى، وأن الوحدة يمكن أن تعود فى أى وقت ضد العالم المسيحى، وأن هناك موقف وعقيدة مشتركة تشكل لُب هذه الأخوة. مكسيم رودنسون، "الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية"، بحث ضمن: جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث (تصنيف)، تراث الإسلام، ترجمة السمهورى ومؤنس والعمد، الكويت، عالم المعرفة، ط٣، ١٩٩٨م، ١/ ٣٦.

(٢) من المهم هنا مراجعة الدراستين المثيرتين التاليتين: تيرى هنتش، الشرق المتخيَّل"، "رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطى"، ترجمة: غازى برّو وخليل خليل، بيروت، دار الفارابى، ط١، ٢٠٠٤م. ونسيب الحسينى، "الغرب المتخيَّل"، رؤية الآخر فى الوجدان السياسى العربى"، ترجمة: غازى برو، بيروت: دار الفارابى، ط١، ٢٠٠٥م.

١- العصور الوسطى التى تجلى فيها الصراع بين عالمين: العالم المسيحى وعالم المسلمين، وذلك ما بين القرنين الثامن والثانى عشر الميلاديين.

٢- نمو وذبول صورة للإسلام أقل عداء فيما بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.

٣- التعايش السلمى والتقارب: العدو يصبح شريكًا، وذلك ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

٤-من التعايش السلمى إلى الموضوعية وذلك ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

٥- عصر النزعة العقلية وذلك ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين.

٦- نزعة التعلق بالغرائب والإمبريالية والتخصص فى القرن التاسع عشر.

٧- العصبية العرقية الأوروبية تهتز فى القرن العشرين.(١)

ويمكن إجمال تاريخ متغيرات الصورة الغربية عن الإسلام بشكل مكثف بأنه مع مطالع العصور الوسطى كان يُنظَر إلى المسلمين على أنهم مجرد كارثة، ولم تصبح الصورة أكثر دقة إلا فى القرن الحادى عشر، ولم تبرز صورة الإسلام نتيجة الحروب الصليبية، بقدر ما برزت نتيجة الوحدة الأيديولوجية التى تكونت ببطء فى العالم المسيحى اللاتينى، وقد أدت هذه الوحدة إلى رؤية أوضح لمعالم العدو، كما أدت إلى تضافر الجهود نحو الحروب الصليبية.

وفى الواقع لم يكن لدى أوروبا المسيحية صورة واحدة عن العالم المعادى، الذى كانت فى صدام معه، بل كان لديها عدة صور. ويمكن أن نميز بصورة تقريبية بين

(١) انظر: مكسيم رودنسون، "الصورة الغربية"، مرجع سابق، ص٣١-٩١. وتحديد القرون التاريخية لكل مرحلة هو تقريبى من كاتب هذه السطور، على ما فى مسألة التحقيب التاريخى من اعتساف أو تجوّز. وسأعتمد بشكل رئيس على رودنسون فى رسم تاريخ الصورة، داعمًا ذلك بمصادر عديدة رجعت إليها، وأحلت إليها فى الهوامش.

ثلاث نواح لرد فعلهم إزاءه، فقد كان العالم الإسلامى -قبل كل شىء- بنية سياسية أيديولوجية عدائية، ولكنه كان أيضًا حضارة مختلفة، وإقليمًا اقتصاديًا غربيًا. هذه النواحى كثيرًا ما أثارت اهتمامًا متفاوتًا، وردود فعل مختلفة حتى لدى ذات الناس أنفسهم.

أوجدت الحروب الصليبية حاجة كبيرة وملحة للحصور على صورة كاملة ومسلية ومرضية لأيديولوجيا الخصوم، وكان رجل الشارع يرغب فى صورة تبين الصفة الكريهة للإسلام عن طريق تمثيله بشكله الفجّ، على أن تكون فى الوقت نفسه مرسومة بشكل يرضى الذوق الأدبى المَيَّال إلى كل ما هو غريب، وهو ميل يشكل سمة بارزة فى جميع الأعمال فى ذلك الوقت. وهكذا أخذ الكُتّاب اللاتينيون على عاتقهم بين عامى ١٠٠ وعام ١١٤٠ إشباع هذه الحاجة لدى الإنسان العامى، وأخذوا يوجهون اهتمامهم نحو حياة محمد ﷺ دون أى اعتبار للدقة[1]، فأطلقوا العنان "لجهل الخيال المنتصر" كما جاء فى كلمات ر.و ساوثرن، بل إن غيلبرت دونوجنت قال: "لا جُناح على الإنسان إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء".

وكما هو الحال دائمًا، فإن الرؤية التى ترسمها الأعمال التى تخاطب عامة الناس لا بد أنها قد أسهمت فى تكوين الصورة التى حفظتها الأجيال اللاحقة، أكثر من الرؤية التى تبينها الأعمال ذات الصبغة الجدية والعلمية، ولقد قُدِّر لهذه الصورة أن تزداد زخرفًا فى الكثير من الأعمال الأدبية.

(١) "الدعاية الدينية ضد الإسلام فى الغرب كوّنت الخلفية العقلية لكل الكتابات الغربية عن الإسلام وتاريخه فى الماضى والحاضر معًا، ومن هنا كان الاهتمام منصبا على الأصول الإسلامية، بينما أهملت أبواب أخرى ضخمة من تاريخ الإسلام حتى ستينيات القرن العشرين. وقد يكون ذلك ناتجًا عن عناية المجادلين الدينيين بهذا الموضوع دون غيره؛ لأن تلك الكتابات نبتت فى بيئة تنافس دينى واحتكاك سياسى، ومن ثم لم تكن كتابات علمية.
انظر: فرد دونر، "اتجاهات الكتابة الغربية عن تاريخ الإسلام"، قراءة نقدية، سلطنة عمان، مجلة التسامح، عدد ٨، خريف ٢٠٠٤م، ص٢٣٦-٢٣٨ . وانظر: أسباب التركيز على أصول الإسلام، ص٢٤٢ . وقارن بـ برنارد لويس: "الإسلام فى التاريخ"، الأفكار والناس والأحداث فى الشرق الأوسط، ترجمة: مدحت طه، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٩٠ .

ولا يلقى المرء موقفًا موضوعيا إلا فى مجال مختلف تمامًا لا يمت إلى الدين الإسلامى إلا بصلة بعيدة، وهو العلم الطبيعى، ومن هنا ظهرت الترجمات اللاتينية للأعمال الأساسية القديمة التى كانت موجودة بالعربية. ولم يجر البحث فى المخطوطات العربية عن صورة الإسلام أو العالم الإسلامى، بل عن المعرفة الموضوعية للطبيعة.

بعد ذلك تمت ترجمات لبعض النصوص العربية وللقرآن[1]، ولقيت تلك المجموعات رواجًا واسعًا نوعًا ما، ولكنها لم تستخدم إلى الحد الذى كان يمكن أن تستخدم به، فلم يظهر أن لها فائدة فى الصراعات الجارية، خصوصًا أن الجدل الدينى كان يستهدف مسلمين خرافيين كانوا يبادرون بسهولة على الورق، وفى الواقع يبدو أن الهدف إنما كان تزويد المسيحيين بحجج سليمة لتثبيت إيمانهم[2]. ثم إن الحالة العقلية للغرب اللاتينى لم تكن مشجعة على الاهتمام بمذاهب دينية فى حد ذاتها كتلك التى كانت موجودة فى الشرق الإسلامى.

إلا أنه كان هناك مجال آخر التقت فيه عدة تيارات من الاهتمام، واكتشف اللاتين فيه صورة أخرى للإسلام، صورة كانت مغايرة إلى حد بارز لمفاهيمهم الدينية المتحيزة، هذا المجال هو الفلسفة، وهكذا أخذت تتشكل فى أذهان المفكرين الغربيين صورة أخرى للعالم الإسلامى بوصفه مهددا لفلاسفة عظام، وكانت تلك صورة مضادة تمامًا للصورة السابقة، صورة الكيان السياسى الذى يسيطر عليه دين معاد ومغلوط، وهى الصورة التى خلقتها الخرافات السخيفة والكريهة فى أذهان الناس.

تراكم المعلومات الصحيحة عن الإسلام وأصوله، وكذلك عن الشعوب الإسلامية والاتصالات المتزايدة، على الصعيدين السياسى والتجارى، والتقدير الذى

(١) يذكر رودنسون أن روبرت أوف كيتون الإنجليزى أتم ترجمته للقرآن سنة ١١٤٣م، ويذكر فرد دونر أن ترجمته ظهرت سنة ١١٤٩م، انظر: رودنسون، "الصورة الغربية" مرجع سابق، ص٤١، ودونر: "اتجاهات الكتابة الغربية"، مرجع سابق، ص٢٣٧ .

(٢) هذا ما يذكره رودنسون، ودونر أستاذ التاريخ بجامعة شيكاغو، وبرنارد لويس فى "الإسلام فى التاريخ"، ص١٨٩.

نشأ عن ذلك فى بعض الأحيان، والتقدير العميق للمذاهب العلمية والفلسفية التى صدرت عن البلاد الإسلامية، كل هذه الأمور انضافت إلى التطور الداخلى البطىء للعقلية الغربية، وأدت إلى إحداث تغيير فى الزاوية التى أصبحت تنظر من خلالها إلى العالم الأجنبى، لكن العنصر الأساس فى هذا التطور -بحسب رودنسون- كان: تحول العالم اللاتينى والاتجاهات الغربية نحو علمنة الأيديولوجيات، وقد طرأ تغير تدريجى على الصورة الهجومية الوحشية لعدو شيطانى، ومما ساعد من سرعة التقدم فى هذا الاتجاه: الشعور بالخطر المغولى، واكتشاف عالم وثنى غير الإسلام من جهة، ومن جهة أخرى انتشار الانقسامات على المستوى الروحى ضمن العالم المسيحى، فازدادت قوة الشعور بأن للإسلام المفهوم الأساسى نفسه فى الدين، وهو: التوحيد.

لكن هذا التوجه لم يطل أمده، فقد تحدث روجر بيكون وريمون ليل عن إحلال الجهود التبشيرية مجال المساعى العسكرية، إلا أن التغيرات والمخططات السياسية التى كانت تحيكها كل أمة على حدة فى أوروبا، والانقسامات، كل ذلك جعل أوروبا اللاتينية- المنهمكة فى صراعاتها الداخلية والتى كانت تتقدم على الصعيد الثقافى- لا تعتبر الصراع العقائدى مع الإسلام ذا أهمية بالغة، بل أخذت تفد اهتمامها به، على أن هذا لم يمنع -بحال من الأحوال- الاقتباسات الثقافية عن الشرق الإسلامى من التكاثر أكثر من أى وقت مضى.

ومنذ نهاية القرن الرابع عشر أدى نمو الامبراطورية العثمانية على حساب البلقان المسيحى إلى بعث الاهتمام بالدين الإسلامى، وكان الأتراك العثمانيون خطراً كبيراً غير أنهم فى هذا القرن كانوا يعتبرون خطراً سياسيا، أو ثقافيا أكثر مما هو خطر عقائدى أيديولوجى. ومن هنا نشأت صلات سياسية معها، ومنذ ذلك الوقت أصبحت التحالفات والحياد والحرب مع العثمانيين -الذين يُنظر إليهم كقوة مثل غيرها بل أوروبية أحيانًا- تقوم على اعتبارات سياسية لا علاقة لها بالعقيدة الدينية المسيحية.

وبالرغم من أن هذه العقيدة بقيت ديناً تقدسه القلوب بقوة، فقد ساد الاعتقاد أنه

يمكن تعليقه -مؤقتًا كما كان يُعتقد- أمام التحركات السياسية الخطيرة، وهكذا اندمج الأتراك على الصعيد السياسى فى الجو الأوروبى.

أصبحت الدراسة الموضوعية للشرق الإسلامى أيسر؛ جراء القرب والاتصالات السياسية الوثيقة، والعلاقات الاقتصادية المتزايدة، والأعداد الكبيرة من الرحالة والمبشرين الذين كانوا يزورون الشرق، ومن جراء انحسار السيطرة العقائدية للدين المسيحى فى أوروبا، وشكل ذلك بالنسبة لرجال السياسة والتجار حاجة ماسة أكثر من السابق، فأخذت دراسات وصفية مفصلة ودقيقة ومتزنة وموضوعية -على قدر الإمكان- تتسرب بعد الدراسة التى قام بها أرنولد فون هارف عام ١٤٩٦م. فلم تعد أنماط الحياة تدرس من حيث اختلافها الواسع أو الضيق عن المثل الأخلاقية المسيحية، وصار نظام الامبراطورية العثمانية السياسى والإدارى والعسكرى موضع دراسات جدية، كثيرًا ما كانت نقدية، ولكنها كانت تشيد أيضًا بفعالية هذا النظام من عدة نواح.

وفى بداية القرن الثامن عشر لم يعد أحد ينظر إلى الإسلام على أنه أرض أعداء المسيح، بل أصبح بصورة أساسية حضارة غريبة ورائعة وموجودة فى جو خيالى فيه الجن والعصاة من أخيار وأشرار، وأصبح الناس يرون الدين الذى ينافس المسيحية بنظرة محايدة، بل بشىء من التعاطف، ولعلهم كانوا يبحثون فيه بصورة لا شعورية- ويجدون فيه بالطبع- عن نفس قيم الاتجاه العقلانى الجديد الذى كان مخالفًا للمسيحية.(١)

وانتقل الجيل التالى من الموضوعية إلى مرحلة الإعجاب، وهكذا بدا النظر إلى الإسلام كدين عقلانى بعيد كل البعد عن العقائد المسيحية المخالفة للعقل، وينطوى على حد أدنى من المفاهيم الأسطورية والطقوس الصوفية، ثم إنه وفق بين الدعوة إلى حياة أخلاقية وبين حاجات الجسد والحواس والحياة فى المجتمع.

وهكذا بدأت تتكامل معالم صورة، هى صورة محمد ﷺ الحاكم المتسامح والحكيم والمشرع، والواقع أن القرن الثامن عشر كان ينظر إلى الشرق الإسلامى نظرة أخوية متفهمة.

(١) انظر: رودنسون، ص٦١، ودونر، ص٢٣٧ .

فى القرن التاسع عشر ظهرت ثلاثة اتجاهات:

١- شعور نفعى وإمبريالى بالتفوق الغربى ملىء بالازدراء للحضارات الأخرى.

٢- ميل رومانسى إلى كل ما هو غريب يبتهج بالشرق السحرى، الذى كان فقره المتزايد يعطى سحره مذاقًا خاصًا.

٣- تخصص علمى انصب معظم اهتمامه على العصور الماضية.

على أن هذه الاتجاهات الثلاثة كانت متكاملة فيما بينها أكثر منها متعارضة.

والميل إلى كل ما هو غريب لم ينشأ من تغير العلاقات بين الشرق والغرب، بل من التحول الداخلى الذى طرأ على حساسية الغرب التى أصبحت تتوق إلى الغريب والعجيب. حينها كان الشرق الإسلامى لايزال عدوًا، ولكنه محكوم عليه بالهزيمة، وكانت البلاد الشرقية أشبه بالشهود المنهارين لماض عريق. فقد كان المرء يستطيع أن يستمتع بترف امتداحهم فى الوقت الذى كان فيه السياسيون ورجال الأعمال يفعلون كل ما فى وسعهم للإسراع فى انهيارهم. ولم يكن بإمكان صحوهم ولحاقهم بالعصر الحديث يثير أية حماسة. بل إنهم يفقدون خلال عملية تحديثهم نكهة الغرابة التى كانت مبعث سحرهم.

وعلى حين كان الشرقى فى العصور الوسطى يعتبر عدوًا شرسًا، ولكنه مع ذلك من مستوى الرجل الغربى نفسه، وكان فى عصر التنوير فى القرن الثامن عشر، وفى ظل أيديولوجية الثورة الفرنسية الناشئة عنه، لايزال يعد -خلف قناعه- إنسانًا قبل كل شىء، فإنه أصبح الآن مخلوقًا مختلفًا سجين خصوصيته، وموضوعًا للثناء الذى يمنّ به عليه البعض، وهكذا ظهر مفهوم "الإنسان الإسلامى"، وهو مفهوم لا يمكن القول إنه اختفى حتى الآن.

لقد كانت الظاهرة التى لعبت الدور الأكبر فى تحديد طبيعة النظرة الأوروبية إلى الشرق، وخصوصًا بعد منتصف القرن التاسع عشر هى صعود الإمبريالية، وتوحيد

القوى الأوروبية فى مواجهة الجزء الأكبر من العالم الإسلامى[1]. كان التفوق الأوروبى من النواحى الاقتصادية والفنية والعسكرية والسياسية والثقافية طاغيًا فى الوقت الذى كان فيه الشرق يغرق فى التخلف. وأصبحت إيران والإمبراطورية العثمانية محميتين أوروبيتين، بينما كان نطاق الاستعمار المباشر ينتشر فى أواسط آسيا لمصلحة الروس، وفى المغرب والمشرق العثمانى لمصلحة البريطانيين والفرنسيين والإيطاليين، وخاصة بعد سنة ١٨٨١م حين احتُلت مصر وتونس، وكان من المحتم أن يؤدى هذا كله إلى تشجيع التمركز حول الذات، وهو صفة طبيعية فى الأوروبيين كانت موجودة دائمًا، ولكنها الآن صبغة تتسم بالازدراء الواضح للآخرين.

وقد شجع الوضع المهين -الذى وجد العالم الإسلامى نفسه فيه- المبشرين المسيحيين، وفتح لهم طرقًا جديدة، وعزا المبشرون نجاحات الأمم الأوروبية إلى الدين المسيحى، مثلما عزوا إخفاق العالم الإسلامى إلى الإسلام، فصُوِّرَت المسيحية على أنها ملائمة -بطبيعتها- للتقدم، وقرن الإسلام بالركود الثقافى والتخلف، وأصبح الهجوم على الإسلام على أشد ما يكون. وبُعِثَت حجج العصور الوسطى بعد أن أضيف إليها زخارف عصرية وصُوِّرت الجماعات الدينية الإسلامية -بصورة خاصة- على أنها شبكة من التنظيمات الخطرة يغذيها حقد بربرى على الحضارة.

كانت كل ظاهرة مناهضة للإمبريالية -حتى لو كان مبعثها مشاعر محلية خالصة- تُعزى إل تلك الحركة الإسلامية[2]، وكانت الكلمة نفسها توحى بالتطلع الإسلامى إلى السيطرة وبأيديولوجية عدوانية، وبمؤامرة على نطاق عالمى.

وبفضل الصحافة والأدب الشعبيين وكتب الأطفال، أخذت هذه النظرة تتسرب إلى عقول الجماهير الغفيرة من الأوروبيين، ولم تخل من تأثير فى العلماء أنفسهم، وخصوصًا

(١) انظر: برنارد لويس، "الإسلام فى التاريخ"، ص٧٠.

(٢) ينتقد بروس لورنس أولئك الذين يروجون للإسلام على أنه دفع احتجاجى (محمد قطب)، أو سياسة دينية (سيد قطب)، بأنهم يقلصون الإسلام إلى منبر مفرد للاحتجاج ضد القوى المهيمنة فى نظام العالم المعاصر. بروس لورنس، تحطيم الأسطورة، ص٥٥، وانظر ص ٥٩.

حين كانوا ينبرون لتقديم النصح إلى أولئك الذين كانوا يوجهون سياسات الحكومات الاستعمارية. أما أولئك العلماء الذين اهتموا كثيراً بالدراسات المعاصرة والذين كانت تشغل بالهم فكرة الجامعة الإسلامية، فإنهم كانوا يميلون لأن يروا فيها حركة رجعية.

أدت حرب ١٩١٤-١٩١٨م إلى تزعزع ثقة الحضارة الأوروبية بنفسها من حيث إيمانها بالتقدم غير المحدود فى الاتجاه الذى كانت تسير فيه، وبذا تزعزع التعصب العرقى الأوروبى[١]. ودلت الثورة العربية وحركة أتاتورك، وتخلص الأمم المختلفة من نير الامبراطورية الروسية القديمة، وثورات الهند وأندونيسيا وغيرها على أن السيطرة الأوروبية يمكن أن تصبح موضع الشك، وهنا نشر شبنجلر بُعيد الحرب كتابه المذهل "تدهور الغرب"، وكتب لورتروب ستودارد الأمريكى "العالم الجديد للإسلام"، الذى أظهر فيه أن تغيرات عميقة أخذت تكوّن شرقًا جديدًا غريبًا، هو -إلى حد كبير- نتيجة للتأثيرات الغربية، وكانت الصورة التى رسمها هى من حيث الأساس صورة عالم يدور حول نواة غامضة مختلفة أساسًا، عدوانية منفرة إلى حد ما، قوامها جهل ووحشية، لا يكاد يقدر على كبح جماحها دين أو عرف أو نخبة مستنيرة قليلة، ولكنه أفسح فى المجال لعوامل عالمية مثل الصراع ضد التدخل الأجنبى.

وقد ظلت تلك النظرة إلى الأمور بصورة تقريبية هى نظرة الجمهور الأوروبى والأمريكى، فيما عدا أن التأكيد لدى الجمهور كان بالأحرى على العامل الأول، وهو الوحشية الكامنة وغير المكبوحة، والتعصب الذى أطلق له العنان لمواجهة الدفع الحضارى الآتى من الغرب.

ولقد أدت موجة مناهضة الاستعمار العارمة إلى إحداث تغيير فى النظرة إلى العالم الإسلامى لدى أوساط ضيقة، لكنها واسعة النفوذ فى المجتمع الغربى[٢]،

(١) انظر: هنتش "الشرق المتخيل"، مرجع سابق، ص٣٠١.

(٢) لكن مناهضة الاستعمار نفسها ولدت الإحيائية الإسلامية، والتى يستند إليها الخطاب الغربى فى رسم الصورة العنيفة والأصولية للإسلام. انظر فى ذلك: معتز الخطيب، "الغضب الإسلامى"، مرجع مشار إليه سابقًا، وبروس لورنس "تحطيم الأسطورة"، ص٨٣ وما بعدها، حيث يرى أن الإحيائية الإسلامية ثورة مناهضة للاستعمار، وأن الأصولية أو الراديكالية نأتى ضمن سياق عالمى إمبريالى.

فالحركة الاستقلالية أثارت الكثير من التعاطف فى الأوساط الحكومية والاقتصادية الغربية، وفى عام ١٩٤٥م كتبت فريا ستارك Freya Stark كتابًا ذا مغزى اسمه "الشرق هو الغرب" . وفى ١٩٦٥م أشاد مجلس الفاتيكان المسكونى بالحقائق التى جاء بها الإسلام، والتى تتعلق بالله وقدرته، ويسوع ومريم والأنبياء والمرسلين، بينما كان الاعتقاد السائد فى العصور الوسطى أن تلك الحقائق كانت أقنعة استطاع "الدجل الإسلامى" أن ينفذ من خلالها، هذه الثورة فى التفكير جعلت التقييم المسيحى لمحمد ﷺ مسألة حساسة، فلم يعد بإمكانهم الزعم الكاذب بأنه "محتال شيطانى" كما كان عليه الحال فى العصور الوسطى.

على أن العالم الإسلامى لم يكن يثير الاهتمام لأسباب سياسية أو عسكرية فقط، أو من وجهة نظر دينية أو علمية، فقد أثار أيضًا اهتمامات متعددة فى الأذهان التى تتوق للقصص الغريبة والعجيبة.

**مسارات العلاقة:**

هكذا كانت العلاقة بين الغرب والشرق الإسلامية علاقة صراع فى مسارها الرئيس، اكتنفه حروب وعمليات تشويه مقصود، حركها فى بدايتها وأثناءها جدالات دينية لاهوتية، ثم تحولت فى القرون الأخيرة إلى علاقة تفَوُّق، وهيمنة فى ظل الاستعمار والإمبريالية[١]، وفى هذا السياق يمكن إدراج مقولة الخطر الإسلامى التى سادت فى الثمانينيات والتسعينيات مع ذهاب الخطر الأحمر الشيوعى، وهو ما لقى رواجًا كبيرًا فى الكتابات والصحف حينها[٢]، وصولاً لمقولة صدام الحضارات لهنتنجتون فى منتصف التسعينات، والتى يرى فيها أن التصادم واقع بين الحضارة الإسلامية والحضارات المسيحية التى يمثلها الغرب الآن.

(١) أفردت المؤرخة الفرنسية صوفى بسيس دراسة مهمة لنشأة الغرب وعلاقته بالآخرين. صوفى بسيس، "الغرب والآخرون"، قصة هيمنة، ترجمة: نبيل سعد، القاهرة، دار العالم الثالث، ط١، ٢٠٠٢م.

(٢) انظر بروس لورنس، "تحطيم الأسطورة، ص٢٢-٢٣ والذى ينتقد ذلك.

ولقد لقيت هاتان المقولتان نقدًا شديدًا من الشرق والغرب[١]، حتى وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، فأعادت الجدل من جديد وبكثافة عالية، حول العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي، فظهرت مقولات "إنهم يكرهوننا"، و"إنهم يكرهون العالم الحر"، وصولاً لمقولة "الإرهاب الإسلامي"، والربط بين الإسلام والإرهاب فى حرب منظمة أطلق عليها "حرب الأفكار".

إن المسارات البارزة التى يمكن رسمها لتلك العلاقة تتلخص فى الآتى:

* الاهتمام الأوروبى بالإسلام نشأ من الخوف من منافس للمسيحية يتميز بوحدته وصلابته، وبقوته الجبارة ثقافيًا وعسكريًا، وكان أوائل الباحثين الأوروبيين فى الإسلام -على نحو ما بينه مؤرخون كثيرون من أرباب المجادلات القروسطية، الذين كتبوا ما كتبوه لدرء جحافل المسلمين التى تهددهم وخطر الارتداد عن الدين المسيحى، وقد استمرت هذه التوليفة من الخوف والعداء بصورة ما حتى يومنا هذا، سواء فى الاهتمام العلمى أم غير العلمى بالإسلام، وهو الذى يُنظر إليه على أنه دين ينتمى إلى منطقة معينة من مناطق العالم هى الشرق، وهى التى غدت تمثل الثقل الموازن خياليًا وجغرافيًا وتاريخيًا لأوروبا أو ضد أوروبا والغرب.[٢]

* مسار برز فيه تأثر الفكر الأوروبى بالفكر العربى ثقافيا وعلميا،، وخاصة من خلال العلوم الطبيعية والفيزيائية والرياضيات والفلسفة، بل والصناعات والأدب وخاصة فى إسبانيا وصقلية، خاصة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر.[٣]

---

(١) نقاد مقولة صدام الحضارات أكثر من أن يُحصوا، لكن انظر إجمال تلك المواقف فى: رضوان السيد، "الصراع على الإسلام"، بيروت، دار الكتاب العربى، ط٢٠٠٥م، ص١٤٢ . أما فيما يخص نقد مقولة الخطر الإسلامى، فانظر مثلاً: فرد هاليداى، "الإسلام والغرب"، خرافة المواجهة، الدين والسياسة فى الشرق الأوسط، ترجمة عبد الإله النعيمى، بيروت، دار الساقى، ط١، ١٩٩٧م. وجون اسبوزيتو، "التهديد الإسلامى: خرافة أم حقيقة؟"، ترجمة: قاسم عبده قاسم، القاهرة، دار الشروق، ط١، ٢٠٠٢م.

(٢) إدوارد سعيد: "الاستشراق"، ص٥٢٠-٥٢١، وانظر: فرد دونر، "اتجاهات الكتابة الغربية"، ص٢٣٨ . أما برنارد لويس فيقرّ بأن دراسة الإسلام كانت لهدفين: حماية المسيحيين من التحول إلى الإسلام، ولإرسال البعثات التبشيرية المضادة لتحويل المسلمين إلى المسيحية، لكن مع انتهاء العصور الوسطى أصبح جليًا تمامًا أن الهدف الأول لم يعد له ضرورة، وأن الهدف الثانى يستحيل تحقيقه. برنارد لويس، "الإسلام فى التاريخ"، ص١٨٩ .

(٣) انظر: عبد الرحمن بدوى، "دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى"، القاهرة، مكتبة الأسرة، ط١، ٢٠٠٤م .

* مسار برز فيه الصراع السياسى بين الطرفين، وأبرز المراحل دلالة عليه هيمنة العالم الإسلامى، التى بدأت سنة ٦٢٢م، واستمرت حتى سقوط غرناطة ١٤٩٢م، والحروب الصليبية وتهديد الامبراطورية العثمانية لأوروبا، ثم الاستعمار الغربى لأغلب العالم الإسلامى لاحقًا..

* مسار التفوق والهيمنة، والذى برزت فيه نزعة احتقار الآخر الشرقى، والتمركز حول الذات، ونوازع الهيمنة على الشرق بثرواته وثقافاته وناسه، وهو المسار الذى لا يزال مستمرًا حتى الآن بشكل بارز، مع خفوت المسار العقدى اللاهوتى. يقول تيرى هنتش: الشعور بالتفوق بات طبيعيًا جدًا بالنسبة للأوروبى، لدرجة أنه من المستحيل عليه تقريبًا أن يرى أو أن يفعل من دونه، فهذا الشعور يلون كل موقفه بما فى ذلك ما ينطوى عليه من حسن وفادة ومن تنوير.(١)

هذا التأريخ للصورة -بتشعباتها ومتغيراتها- على طوله مُكثَّفًا، هدفنا من خلاله إلى إظهار عدة أمور، من بينها أن هذا الثراء فى تعقيدات الصورة ومتغيراتها تبعًا لعوامل سياسية وثقافية وفكرية داخلية، أى داخل الغرب نفسه، ومن خلال تطوراته الفكرية، وخارجية جراء تبدل موازين القوى، هذا كله من شأنه أن يخلخل التصورات الصلبة والكلية والمعممة عن العداء، أو عن الغرب نفسه فى علاقته بالإسلام والمسلمين، فضلاً عن أن هذا التنوع والتغير جراء امتداد التاريخ وسعة الجغرافيا، وغناء عالم الأفكار وتبدلاته، يساعد على تحليل عوامل التغير والتبدل، وإدراك أسرارها برؤية متجاوزة لتلك الرؤية الوصفية التاريخية التى كتب بها مكسيم رودنسون دراسته(٢)، رؤية تحمل على دراسة الظاهرة بوصفها إشكالية، لا تأريخ الظاهرة بما هى ظاهرة وتطوراتها ومساراتها فقط.

---

(١) هنتش: "الشرق المتخيل"، مرجع سابق، ص٢٥١ .

(٢) يشير تيرى هنتش بصورة خاصة إلى مكسيم رودنسون وهشام جعيط فى كتابه "أوروبا والإسلام" لأن هذين الكتابين هما اللذان يوفران -على حد علمه- استعراضًا تاريخيا مختصرًا لرؤية الغرب للشرق، منذ العصر الوسيط حتى أيامنا هذه. إلا أنهما يتقدمان فى النظرة الغربية إلى الإسلام عرضًا وصفيًا أكثر منه تحليليًا. انظر: تيرى هنتش، "الشرق المتخيل"، مرجع سابق، ص ١٥ .

## الخوف الحالى من الإسلام ومصادره:

يعود الخوف الحالى من الإسلام إلى عوامل متضافرة معًا، سنحاول الإشارة إليها بإيجاز:

### ( أ ) الإسلام السياسى:

يعود هذا العامل إلى ثلاثينيات القرن العشرين، مع ظهور ما سمى بـ"الإسلام السياسى أو الحركات الإسلامية"، مع الشيخ حسن البنا عام ١٩٢٨م[١]، فهذه الحركات قدمت الإسلام بمفهوم متجاوز لمفهوم الدين فقط، بل قدمته بوصفه نظامًا شاملًا: اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا وقضائيًا، وبهذا يرى الدارسون الغربيون أن الإسلام بهذه الصفة يتم تقديمه بوصفه أيديولوجية جديدة للمقاومة[٢]، يتناول الهوية والثقافة والدين معًا. وفى هذا التصور تهديد لمصالح الغرب الذى يقدم أنموذجه الحضارى على أنه "نهاية التاريخ"، ويسعى إلى تنميط العالم وفق أنموذجه، بما يحقق هيمنته الكاملة على باقى العالم، خاصة أن مجمل هذه الحركات يسعى إلى الوصول إلى السلطة لإقامة "الدولة الإسلامية". وفى الواقع لا يفرّق الباحثون الغربيون بين الحركات الإسلامية التى توصف جميعها بأنها "أصولية[٣]".

إلا أن الحركات العنيفة تحديدًا، والخطابات المعادية للغرب بإطلاق، شكلت أحد أبرز العوامل فى تكوين الصورة السلبية عن الإسلام فى الغرب، وتوّج ذلك وقوع أحداث ١١ سبتمبر، التى أنعشت المخيلة الغربية، وأفسحت المجال للتيار المتطرف المعادى للعرب والمسلمين لبث سمومه وحقده.

فيما ترى الثانية أن بعض سمات الإسلام جعلته مناسبًا، كأداة لتصحيح التفاوت الاجتماعى والاقتصادى والسياسى القائم فى المجتمعات المعنية، فالحركات نشأت

(١) انظر: أوليفيه روا، "تجربة الإسلام السياسى"، ترجمة: نصير مروة، بيروت، دار الساقى، ط٢، ١٩٩٦م، ص٤١ .
(٢) انظر مثلاً: واصف شديد، وسجورد فان، الصورة السلبية للإسلام والمسلمين فى الغرب، مرجع سابق، ص٢٩.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص٢٨.

كتجليات ثقافية ووطنية، وهى متوجهة لمجابهة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التى تعانى منها مجتمعاتها، ولم يكن الغرض منها محاربة السيطرة الأجنبية.(١)

**(ب) المسألة الثقافية:**

يشغل البعد الثقافى مكانة محورية فى العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامى، وهو ما يتبدى من خلال الصور السائدة لدى كل طرف عن الآخر، والكيفية التى يشكل بها كل طرف الآخر ويرسمه من خلالها، ولعل أبرز ما يمكن استدعاؤه هنا مقولتان ذاع صيتهما فى السنوات الأخيرة، هما: أطروحة فوكوياما عن نهاية التاريخ، والتى يرى فيها أن النموذج الرأسمالى الليبرالى هو أرقى ما يمكن أن تصل إليه البشرية، وما على باقى العالم إلا الانضمام إليه، ومقولة هنتنجتون عن صدام الحضارات، والتى يرى فيها أن صراع الحضارات سيكون المصدر الرئيس للنزاعات فى النظام العالمى الجديد، وسيكون هذا الصراع مقتصراً على الثقافة الغربية من جهة، والثقافتين الإسلامية والكونفوشيوسية (فى الصين وكوريا) من جهة أخرى، والثقافتين تشكلان خطراً على الثقافة الغربية؛ لأنهما لا ترغبان أو لا تستطيعان الانضام إلى الغرب.(٢)

وعلى هذا، فالأطروحتان تعتمدان التأصيل الثقافى، وإن كانت أهدافهما سياسية واستراتيجية، والإسلام فيما يمثل -فى الداخل كما فى الخارج- فى أيامنا الأيديولوجية الوحيدة الكفيلة بتغذية رفض جذرى للهيمنة الغربية، من دون أن تستعير أسلحتها الفكرية من الغرب.(٣)

وقد أدت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، إلى تمكن موضوع الصدام بين الحضارات من العقول، وأصبح يشكل بؤرة الاهتمام، بل إن البعض رأى أن

(١) المرجع السابق، ص٢٧.

(٢) صمويل هنتنجتون، "صدام الحضارات"، مرجع سابق.

(٣) هنتش: "الشرق المتخيل"، مرجع سابق، ص٢٩٨

الأحداث "أدت إلى تعميم مفهوم صراع الحضارات فى عالمنا، عن طريق نفى وجود هذا الصراع، حيث إن العدد الكبير من المفكرين ورجال السياسة الذين أكدوا فى الأيام والأسابيع والأشهر التى تلت الاعتداء، أنه لا يمكن أن يكون هناك صراع حضارات بين الإسلام والمسيحية، يثبت بما فيه الكفاية أن هذا المفهوم البدائى يسكن عقول الجميع[١]. وفى هذا السياق تأتى الكتب التى راحت تتحدث عن صراع حضارى، وكأن حدث سبتمبر أعطاها مصداقية تؤكد صحة مقولتها من خلال هذه الصورة الصدامية المتشخصة.

ومما يتصل بالمسألة الثقافية تلك الأطروحات التى سادت بعد أحداث سبتمبر فى تفسير "الإرهاب الإسلامى"، والتى تخلُص إلى القول بحداثة إسلامية مستحيلة أو شبه مستحيلة، وأن الإسلام ديانة ذات جوهر ثابت ومظهر متغير، وأن الأصولية تكوينية فى الإسلام، وأن الهزائم المتطاولة للمسلمين، والإرهاب بوصفه انزعاجًا ثقافيًا، والإسلام بوصفه جذر تخلف وعنف أبديين، كل هذا يُضمر موقفًا معاديًا ومتنافرًا بين الحداثة والإسلام. بل إن لويس يرى فى أزمة الإسلام أن الإرهاب الإسلامى يفسر بكونه موقفًا عصبيا حادا إزاء حداثة مستحيلة تقتضى -فى العمق- الانفصال عن المرجعية الإسلامية، ومعضلة الإسلام كما يراها فى الامتزاج بين الدين والسلطة، فالإسلام لديه مشروع سياسى[٢].

فى المقابل، ثمة رأى يذهب -على النقيض من ذلك- إلى أن العداء بين العالم الإسلامى والغرب، تسببت به أوجه الشبه أكثر مما تسببت به الاختلافات بين كلا الثقافتين، والتشابه الأول أن الحضارتين تدعيان امتلاكهما أيديولوجية كونية فى طبيعتها، علاوة على ذلك، المسلمون مقتنعون بأن نظامهم الدينى يقدم بديلاً ملائمًا للديمقراطية والليبرالية الغربية.

---

(١) إيمانويل تود: "ما بعد الامبراطورية" دراسة فى تفكك النظام الأمريكى، ترجمة: محمد زكريا إسماعيل، بيروت، دار الساقى، ط١، ٢٠٠٣م، ص٦٧ .

(٢) انظر: معتز الخطيب، "الغضب الإسلامى"، مرجع مشار إليه سابقًا.

وثمّة قول يذهب إلى أن المسألة لا تتعلق بصراع الحضارات ولا بالشبه بينهما، وإنما تنبع من حاجة الغرب إلى عدو لا غنى عنه؛ من أجل تأكيد وتعريف هويته الخاصة، وهنا يقع تفسير: لماذا دأب الغرب بعد سقوط الشيوعية على تصوير الخطر الأخضر الإسلامي بديلاً عن الخطر الأحمر؟ لكن هاليداى وآخرين يرفضون هذا التفسير ويعتبرونه خرافة.(٣)

**(جـ) المسلمون فى الغرب:**

من العوامل المؤثرة فى كراهية الإسلام: تزايد هجرة المسلمين إلى الغرب، خاصة خلال الستينيات من القرن العشرين، والتى أثارت نقاشات اقتصادية واجتماعية فى بداية الأمر، لكن منذ أوائل الثمانينات -بعد الثورة الإسلامية الإيرانية- أخذ الإعلام يربط بين تلك النقاشات وبين ثقافة وديانة هؤلاء المهاجرين، فبرز النقاش حول ما إذا كانت قيم وثقافة هؤلاء تنسجم مع الثقافة الغربية، وفى هذا السياق تبرز مسائل عديدة من قبيل الحجاب ، وتعدد الزوجات، والسباحة المختلطة، وختان الإناث، وإنشاء مدارس إسلامية.. إلى غير ذلك. بل إن الأمر لاحقًا تجاوز تلك النقاشات إلى مسائل الولاء والمواطنة، ومدى تأثير الحركات الإسلامية فى العالم على المسلمين داخل الاتحاد الأوروبى ، ثم جاءت أحداث سبتمبر فأدت إلى طرح مسألة الولاء للوطن بقوة، بل إن هنتنجتون قدم أطروحته الثانية عما أسماه الهوية الأمريكية، التى يجب الحفاظ عليها، والتى تقوم على ركائز أربع أساسية، هى: العرق الأبيض، والإثنية الانجليزية، والدين المسيحى البروتستانتى، والثقافة الانجليزية البروتستانتية.(٢)

إن موقف العرب السلبى من المهاجرين المسلمين فى أوروبا يعود لسببين، أحدهما- وهو الأهم - الاختلاف العرقى، والعداء المتصاعد للمسلمين هناك يعود

(١) انظر: واصف شديد وسجورد فان، "الصورة السلبية"، ص٢٣ . لكن هنتنجتون يعبر بصراحة -فى كتابه المشار إليه لاحقًا،-عن اعتقاده بأن العداء للآخر يلعب دورًا أساسيًا فى تشكيل هوية أى جماعة، ويرى أن الحروب التى خاضها الأوروبيون فى العصور الوسطى، وقبل بداية عصر الدولة القومية، كانت ضرورية لتشكيل هوية الدول الأوروبية المختلفة.

(2) Samuel P. Huntington. Who Are We: the challenges to America's National Idenity, New York, Simon & Schuster, 2004.

لرفض مجموعات معينة تقبل حقيقة أن مختلف بلدان أوروبا الغربية أصبحت دول هجرة، ومن ثم تخشى أن تفقد الإطار الثقافى فى ظل التعددية الثقافية التى تتفاعل داخلها ونشأة التمايزات.

والسبب الثانى لتدهور الموقف الغربى من المسلمين يمكن أن يُعزى لتحريف إحصائى كما فى بلدان أوروبا، حيث ظهر تزايد علمانى وتزايد عدد المسلمين أيضًا، ويتناقص عدد أعضاء الكنيسة، وهذا يزيد من مخاوف الأسلمة فى الغرب.(١)

**د- الإرهـــاب:**

جنسية مرتكبى تفجيرات ١١ سبتمبر المفترضين استنهضت المخزون الثقافى والصورة النمطية للإسلام والمسلمين، وحولت الاتهام إلى الدين نفسه، وفى أحسن الأحوال ثار التساؤل عن هذا الدين، الذى يبيح لمعتنقيه مثل تلك الأفعال. وفى هذا كتب إدوارد سعيد: "قد أتمنى أن أقول: إن الفهم العام للشرق الأوسط وللعرب وللإسلام فى أمريكا قد تحسن بعد ١١ سبتمبر، ولكنه لم يتحسن... إن رفوف المكتبات الأمريكية بعد ١١ سبتمبر امتلأت بكتب مليئة بعناوين مهلهلة صارخة عن الإسلام والإرهاب والتهديد العربى والخطر الإسلامى"(٢).

لسنا نريد العودة إلى الحرب الصليبية التى تحدث عنها بوش فيما اعتُبر زلة لسان، وما أثارته من جدل واسع فى العالم الإسلامى ، بل التركيز تحديدًا على تلك التصريحات التى ألقت باللائمة على الإسلام، الذى يبيح تلك الأفعال أو يشكل مرجعية هؤلاء المنفذين للهجوم. فى حين باهى برنارد لويس فى مقدمة كتابه "أزمة الإسلام" بأنه قد بذل الرئيس بوش والسياسيون الغربيون الآخرون جهودًا عظيمة ليوضحوا أن الحرب التى ننهمك فيها هى حرب ضد الإرهاب، وليست حربًا ضد العرب ولا ضد المسلمين. إن رسالة أسامة بن لادن هى رسالة مضادة، فبالنسبة لابن لادن وهؤلاء الذين يتبعونه، فإن هذه حرب دينية، حرب فى سبيل الإسلام ضد الكفار؛ ولذلك فهى بشكل حتمى ضد الولايات المتحدة، القوة العظمى فى عالم الكفار"(٣).

---

(١) انظر: شديد وكوننغسفيلد، "الصورة السلبية"، ص٣٨-٣٩ .

(٢) الكلام جزء من مقدمته الجديدة لكتاب الاستشراق التى نشرتها الجارديان بتاريخ ٢ أغسطس ٢٠٠٣م

(3) Bernard lewis, The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror, New York, random house, 2003.

وكذلك شاريل بينارد التى قالت: "بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م مباشرة بدأ السياسيون وصُنّاع القرار فى الغرب بالإدلاء بتصريحات تؤكد قناعاتهم بأن الإسلام ليس ملومًا فيما حدث؛ ذلك لأن الإسلام قوة إيجابية فى العالم، وكان دينًا للسلام والتسامح، حيث تحدثوا فى المساجد وعقدوا اجتماعات واسعة مع علماء مسلمين، وقاموا بدعوة الشخصيات الدينية الإسلامية البارزة فى افتتاح المناسبات العامة، كما استشهدوا بسور قرآنية فى خطاباتهم، واعتبرت الصيغة النموذجية لهذا الخطاب الذى يبرّئ ساحة الإسلام: خطاب بوش ٢٠٠٢م الذى قال فيه: "إن الإسلام دين يوفر الرفاهية لمليار من البشر حول العالم.. لقد آخى الإسلام بين مختلف الأعراق فهو دين قائم على الحب لا على الكراهية". وأضافت بينارد أن هذا النهج لم يكن قاصرًا على الولايات المتحدة، بل كان سائدًا فى أوروبا أيضًا، وقد انضم المجتمع الأكاديمى بسرعة إلى هذه الجهود"[١].

وكان فريد هاليداى خصص فصلاً كاملاً لعداء الغرب للمسلمين، رافضًا مقولة "الإسلاموفوبيا" والتى تعنى خوف أو عداء الغربيين للإسلام، فهو يرى أنه ليس هناك عداء للإسلام كدين فى الغرب بالمعنى الصليبى للكلمة، رغم وجود بعض تسربات الإرث التاريخى والتصورات المتوارثة، لكن الأهم والسائد فى رأيه هو موجات العداء للمسلمين كناس وليس للإسلام كدين ونظرية، وهو عداء ذو جذر سياسى واجتماعى وليس ثقافيًا دينيًا وأغلب العداء مرتبط بالمهاجرين والظروف الاقتصادية، وإلى حد ما هنالك الجهد والتجهيل الذى أثارته نظرية "الإسلام الخطر البديل عن الشيوعية" بحسب رأى هاليداى[٢].

لكن بالمقابل لا يمكن تجاهل مواقف بعض قيادات اليمين الأمريكى المتدين تجاه الإسلام، والتى قال عنها ديفيد فروم -أحد كُتّاب خطابات بوش سابقًا-: "إن قيادات اليمين الأمريكى المتدين الذين يمثلون أقوى قواعد الجماهيرية المساندة لبوش، شعروا

(١) شاريل بينارد، الإسلام الديمقراطى المدنى: الشركاء والمصادر والاستراتيجيات"، مؤسسة راند، ٢٠٠٣م، ص١٧-١٨ .

(٢) فريد هاليداى، "ساعتان هزتا العالم"، مرجع مشار إليه سابقًا.

بغضب شديد تجاه موقف بوش من الإسلام والمسلمين فى أعقاب أحداث سبتمبر؛ لأن بوش وصف الإسلام بأنه دين سلام"[١].

وما يؤكد كلام ديفيد فروم تلك التصريحات التى صدرت من بعض هؤلاء، والتى كانت بمثابة رد على كلام بوش، فقد رفض فرانكلين جراهام المستشار الدينى للرئيس بوش، وصف الإسلام بأنه "دين مسالم"، ووصف جيرى فالويل الرسول ﷺ بأنه إرهابى، وقال بات روبرتسون: " إن الإرهابيين لا يحرفون الإسلام، إنهم يطبقون ما فى الإسلام"!

فى الواقع، بعيداً عن كل هذه التصريحات والتصرفات، هنالك جو عام فى أمريكا مشحون ضد الإسلام، فدانيال بايبس نفسه يذكر فى افتتاح مقال له ما نصه: "الإسلام شر". كانت هذه هى العبارة التى تركها بشكل مخالف للقانون أحد رجال المخابرات الأمريكية على روزنامة صلاة إسلامية، بعد مداهمته فى الثامن عشر من يوليو لبيت واحد يُشتبه بأنه من عملاء القاعدة فى ديربورن ميشيغان. تلك الكتابة الفجّة تعكس وجهة نظر أصبحت تلقى رواجًا فى الولايات المتحدة منذ الحادى عشر من أيلول".[٢]

وتقول جويس ديفس: "إن كلا من صناع القرار والمواطنين الأمريكيين العائدين لديهم صورة مشوهة عن الإسلام والعالم الإسلامى، وإنه لمن الصعب تغيير هذه الصورة النمطية السلبية، ومن الأصعب تجسير هذه الفجوة المعرفية بين الغرب والإسلام، خصوصًا أن غالبية الأمريكيين يحملون أفكارًا مسبقة معادية للإسلام والمسلمين، لا تجد أى أساس معرفى لها، وترى أن على الولايات المتحدة أن تحاول الحد من تكرار الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين التى تجعل من المسلمين إرهابيين.[٣]

---

(١) وذلك فى كتابه "الرجل المناسب: الرئاسة المفاجئة لجورج دبليو بوش" ٢٠٠٣م، نقلاً عن:
http://www.alijazeera.net/NRexeres/DE331B5-A86D-47J3-87B3-EBDC2CF70992.htm

(2) Daniel Pipes, The Evil Isn't Islam, New York post, July 30, 2002
http://www.danielpipes.org/article/437

(٣) جويس ديفس: "الإسلاميون والأنظمة العلمانية: هل العنف ضرورى؟"، بحث ضمن أحمد يوسف (إعداد)، مستقبل الإسلام السياسى: وجهات نظر أمريكية"، بيروت، المركز الثقافى العربى، ط١، ٢٠٠١م.

الأمر نفسه يؤكده أكبر أحمد عالم الأنثروبولوجيا الذى يرى أن الإسلام تحت الحصار، وهو حصار تفرضه رؤى سياسية واستراتيجية وإعلامية وأيديولوجية عامة معادية للإسلام، ويعيب على دارسى الإسلام -خاصة بعد ١١ سبتمبر- نزعتهم الانتقائية فى قراءة الإسلام، وخاصة فى حقل الإعلام.. ويقول: "إن خبراء الإعلام الجاهزين على الفور، كلهم مذنبون فى مثل هذا الاستخدام الانتقائى للإسلام عمومًا وللقرآن الكريم لتدعيم وجهات نظرهم الجاهزة"(١). ويؤكد كذلك على أن رؤية العامة للإسلام تتسم برؤية تبسيطية تحصر الإسلام بالعنف والإرهاب.. بل إن الأنثروبولوجى إيمانويل تود قال: "إن الإسلام المحافظ شُفِّر باللغة الدارجة بمفهوم الإرهاب الذى يرغب كثيرون فى أن يروه شاملاً جميع العالم"(٢).

**(هـ) تأثير وسائل الإعلام:**

تلعب وسائل الإعلام الغربية دورًا كبيرًا فى تنشيط واستمرار تلك الصورة العدائية للإسلام والمسلمين، فعلى سبيل المثال، وفى شهر تموز ٢٠٠٥م، هاجم المحامى راؤول فيلدر شخصية الرسول محمد ﷺ، مضيفًا: "هذا (الإسلام) دين كراهية.. هذا دين قتل". وذلك أثناء حلقة من برنامج حوارى، وما كان من جاكى مايسون المذيع فى شبكة "وستوود وان" أكبر شبكات الإذاعة الأمريكية إلا أن أيده قائلاً: "هذه معلومات مثيرة لا يعرفها أحد تقريبًا.. الجميع يعتقدون أن الإسلام دين مشروع ينادى بالحب والأخوة.. الحقيقة هى أن الإرهابيين يعكسون دينهم ويتبعون دينهم.. إنهم يتبعون أوامر الدين مباشرة من القرآن". وأضاف: "كل الدين الإسلامى يدعو إلى -ويعلم- الكراهية والإرهاب والقتل ولا أحد يعلم ذلك، وقد حان الوقت لأن يعلموا ذلك عن الإسلام.. القرآن يعبر بخمسين أسلوبًا عن الكراهية والحقد والعداء والقتل، القرآن موهوب للإرهاب".

وفى يوليو ٢٠٠٥م أدلى مايكل جرام، أحد مقدمى البرامج الحوارية فى إذاعة

(١) أكبر أحمد: "الإسلام تحت الحصار"، بيروت، دار الساقى، ط١، ٢٠٠٤م، ص٣٦.

(٢) إيمانويل تود: "ما بعد الامبراطورية"، ص٦٧.

"دبليو إم إيه إل" الأمريكية، فى أحد برامجه بتصريحات قال فيها: "الإسلام منظمة إرهابية" و"الإسلام فى حرب مع أمريكا"، و"المشكلة ليست فى التطرف.. الإسلام هو المشكلة"، و"نحن فى حرب مع منظمة إرهابية تدعى الإسلام".

فوسائل الإعلام هنا تمارس دوراً بارزاً فى مثل هذا الابتذال، فيما يخص الإسلام والمسلمين، ويشير بحث من مصادر مختلفة إلى أن طريقة كتابة تقارير وسائل الإعلام الغربية عن المسلمين والإسلام والأقليات العرقية على العموم لا تتطرق إلى الكثير من الأشياء المطلوب معرفتها عن هذه الجماعات.(١)

وعلى سبيل المثال فقد درست إليزابيث بول دور وسائل الإعلام البريطانية فى نشر صورة سلبية عن الإسلام والمسلمين، واستنتجت أن وسائل الإعلام تعمم بشكل ساحق ما يتعلق بهذه المجموعات، فالإسلام ينظر إليه كشىء قديم الطراز، ويشكل خطراً على المجتمع البريطانى كما يتم وصف المسلمين بأنهم مختلفون غير منطقيين ولا يقدرون على الاندماج فى المجتمع.

ويعود إسهام وسائل الإعلام فى خلق تلك الصورة السلبية عن المسلمين من خلال:(٢)

١- تقديم مفهوم ثقافى جامد وغاية فى التبسيط عن تلك الجماعات، فهى تشير بسطحية للثقافة الإسلامية الكلاسيكية لتفسير سلوك المسلمين فى العصر الحديث، بشكل يبدو فيه الدين وحده مسئولاً عن مظاهر وسلوك المسلمين.

٢- ذكر الأصل العرقى أو الانتماء الدينى للذين يرتكبون جرائم، أو بتصنيف النزاعات الإقليمية والعرقية الراهنة كنزاعات دينية، وكذلك فى اعتبار أن أى شخص يمثل الرأى الرسمى للدين، دون تدقيق فى اختيار الخبراء.

---

(١) انظر: إدوارد سعيد، "تغطية الإسلام: كيف تتحكم أجهزة الإعلام ويتحكم الخبراء فى رؤيتنا لسائر بلدان العالم"، ترجمة: محمد عنانى، القاهرة، دار رؤية، ط١، ٢٠٠٥م.

(٢) انظر: واصف شديد وسجورد فان: "الصورة السلبية للإسلام"، مرجع سابق، ص٣٣-٣٤.

وترى إليزابيث بوول أن الخطاب الاستشراقى ما يزال حاضراً بقوة فى اللغة الإعلامية البريطانية، عندما تتعرض للإسلام والمسلمين وقضاياهم، ومعنى ذلك أن مجموعة واسعة من المواقف المسبقة تجاه المسلمين وثقافتهم هى التى تؤسس للعقلية الجماعية للجمهور البريطانى، حين يكون الإسلام أو أتباعه هم موضع الحديث أو البحث. ويكرّس الخطاب الاستشراقى أفهاماً عمومية عن سكان العالم الإسلامى، سواء من ناحية حياتهم الاجتماعية (القمع الأبوى والسلطوى!)، أو طبيعة العلاقات بين الرجل والمرأة (تحكم الرجل بالمرأة وتعدد الزوجات!)، أو طبيعة الحكم السياسى (الاستبداد الشرقى!)، أو عدم تواؤم الإسلام والمسلمين مع المفاهيم السياسية والثقافية الحديثة (كالديمقراطية وحقوق الإنسان!).

وفى الواقع ترجع هذه المشاكل إلى عدة عوامل هى[1]:

١- التحيز الذى يغذيه الصحفيون كأعضاء فى المجتمع، ويوجهونه نحو المسلمين، فلا شك أن تغطيتهم ستتأثر سلباً فى هذه الحالة، فهم يميلون لتقديم الأخبار بطريقة تتماشى مع آرائهم الخاصة ومعايير وقيم الجماعة التى ينتمون إليها.

٢- قيمة الأخبار تنبع من مدى اختلاف الرسالة الإخبارية عما هو سائد فى المجتمع، أى من غرابتها؛ للفت الاهتمام والإثارة، ولهذا يميل الصحفيون إلى التركيز على ما هو غريب وسيىء، ويركزون على الاختلافات بين الإسلام والمسيحية والمجتمع الغربى.

وقد تعرضت إليزابيث بول لمسألة الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا) والإعلام، وكيف يتم تضخيمها والنفخ فيها، فالمشكلة هنا تكمن فى أن الإعلام يبحث عن الإثارة ويتابعها، ويبحث فى أدق تفاصيل القصص المتعلقة بها، ويؤدى هذا -عادة وفى خضم التنافس للحصول على الخبر المثير- إلى انحدار فى المعايير المهنية، ومستوى التحرى والتدقيق، مما يضخم من الأخبار الهامشية، ويعطى أهمية فائقة

(١) انظر: واصف شديد وسجورد فان: "الصورة السلبية للإسلام والمسلمين"، مرجع سابق، ص٣٤-٣٥.

لأفراد وجهات غير ممثلة للتيار الأعرض من المسلمين، لكن النتيجة هى أن أصوات أولئك الأفراد نظرًا لتطرفها وأحيانًا غرائبيتها، تنتشر انتشارًا كاسحًا، وتكاد توحى بأنها التى تمثل الصوت الأكثر سماعًا فى أوساط المسلمين؛ لهذا فإن الإعلام والأصوات المتطرفة فى أوساط الجالية المسلمة يتقاسمان المسئولية فى إثارة الخوف من الإسلام وتشويه صورته العامة.

٣- عامة المراسلين يفتقدون المعرفة الكافية حول الإسلام، وحجم التنوع الكبير الذى فيه، كما أن ضغط الوقت الذى يعمل فى ظله المراسل لا يساعد على فهم تعقيدات التاريخ الإسلامى وواقع المسلمين، وأين يمكن التفريق بين ما يعكس حقيقة الدين وما يعتبر تصرفًا شخصيًا لبعض المسلمين.

هذه أبرز أسباب العداء للإسلام والمسلمين، والتى حاول فريد هاليداى حصرها فى نوعين: عداء استراتيجى وآخر شعبى، فالأول موجود فى الولايات المتحدة، ويرتبط ويتغذى من مسائل مثل: واردات البترول والأسلحة النووية والإرهاب، ويعود تاريخ هذا النوع -بحسبه- إلى السبعينيات كنتيجة لرفع أسعار النفط من قِبل منظمة أوبك، والثورة الإيرانية، وأزمة الرهائن الأمريكيين فى طهران، وتفجير مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣، والتحليل المتحيز لهذه الأحداث من قبل الصحافة.

أما الثانى الشعبى فقد ظهر كردة فعل، ويتعلق بمسائل تتصل بوجود المسلمين فى المجتمعات الأوروبية، مثل: الاستيعاب والدمج العنصرى، العرق، الحجاب،...إلخ، وهذا النوع من العداء أصبح منذ الثمانينيات جزءًا من موقف مناهض للمهاجرين فى أوروبا الغربية.(١)

### ٥- سبل تصحيح الصورة:

بعد أحداث ١١ سبتمبر، ساد اتجاه حكومى ثقافى يطالب بتحسين الصورة؛ جراء

(١) انظر: فريد هاليداى: "الإسلام وخرافة المواجهة"، مرجع سابق.

التشويه الذى وقع على الإسلام والمسلمين والتغطيات المتحيزة ضدهم، والاعتداءات التى وقعت عليهم بالجملة. وفى المقابل رأى آخرون أن مقولات تحسين الصورة لا تجدى نفعًا طارحين تساؤلات مفادها: ممن؟ ولمن؟، فى إشارة إلى عدم جدوى ذلك؛ لأن التشويه مقصود أولاً، ولأن المشكلة لا تُحلّ بعملية تجميل للواقع، وربما ذهب اتجاه ثالث إلى القول: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصرى حتى تتبع ملتهم). لكن المسألة أكثر تعقيدًا من هذا التبسيط المتعجل، فمن حيث المبدأ رأينا فيما سبق التعقيدات التى تلف الموضوع، والتنوع الكبير الذى يكتنف الغرب، فليس من الإنصاف التعامل معه بنظرة بسيطة كلية متجانسة.

ثم إن مسئولية حمل الرسالة الإسلامية تفرض على معتنقيها تنقية صورتها مما علق بها من تشوهات، سواء من الخصوم أم من الأبناء، وكلاهما واقع. وهنا يجب التفريق بين الإسلام بوصفه دينًا منزّلاً وبينه بوصفه ثقافة بشرية تتلون بحسب الجغرافية والتاريخ وعوالم الأفكار والعادات، وهذا الخلط هو الذى أوقع فى مساوئ كثيرة، منها: إحالة كل سلوكيات المسلمين إلى الدين نفسه، وتحميله المسئولية كاملة، ومنها أن الخلط بينهما دفع المستشرقين إلى شرذمة الإسلام إلى "إسلام آسيوى" وآخر "أوروبى" وثالث "أمريكى" ورابع "عربى".

وأمر آخر تفرضه مصالح الشريعة ونصوصها، من حيث إن الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين تؤول فى نهاية الأمر إلى "الصد عن سبيل الله"، وهذا يوجب -وحده- تحمل المسئولية لمعالجة تلك التشوهات أو المساهمة فى ذلك.

ووفقًا لبيان أسباب العداء الحالى للإسلام والمسلمين كما سبق بيانها، فإنه يمكن تقسيم المقترحات كذلك أيضًا، بحيث تغطى تلك المجالات المتعددة.

**ففيما يخص حركات الإسلام السياسى**، فلابد من التركيز على التنوع الكبير الذى يحيط بها، وهناك محاولات جادة فى هذا المجال من مثل ما قام به فريد هاليداى[1]،

(١) فى كتابه "الإسلام والغرب: خرافة المواجهة"، والذى يقدم فيه شهادة على التنوع المدهش للعالم الإسلامى.

وبروس لورانس، الذى يقول : "وفى حين أن لا أحد بإمكانه الإنكار أن بعض المسلمين يقترفون أفعال عنف، سأحاول إظهار كيف أن التنوعية فى الإسلام تسمح ليس بردٍ واحد، وإنما بعدد من الاستجابات الإسلامية على العنف[١].

وثمّة أمر شديد الأهمية يجب الالتفات إليه هنا، وهو وضع سياسة قادرة على إخراج الإسلام من الاعتبارات الأمنية فى السياسات الغربية تجاه الإسلام، وكذلك فى الأنظمة القائمة، وهو أمر بالغ الصعوبة؛ لأن النظر إلى الإسلام باعتباره مشكلة أمنية والتعامل معه على هذا الأساس، يفترض مسبقًا أنه مصدر للمشاكل والخطر، ثم لا يتيح أية إمكانية للتعامل معه خارج تلك الدائرة، وما من شك أن الذى حشر الإسلام فى هذه الزاوية الضيقة الحركات التى تمارس العنف باسم الإسلام، وتلك الخطابات العدائية للعالم بأسره، والتى تصور الإسلام على أنه معاد لكل منجزات الفكر المعاصر.

**وفيما يخص المسألة الثقافية**، فإنه لإشاعة التنوع الفكرى الذى يزخر به العالم الإسلامى دورًا كبيرًا فى التخفيف من حدة تلك الأطروحات الشمولية، التى تزعم نهاية التاريخ أو صراع الحضارات، أو العداء المطلق للحداثة، إلى غير ذلك من المقولات. فالعالم الإسلامى يزخر بنتاج فكرى كبير حول تلك القضايا، وقدم مقولات تجديدية كثيرة؛ رغبة فى الإسهام فى العالم المعاصر والاندماج فيه، وإن إشاعة المعرفة بين الغرب بتلك التطورات التى يشهدها الفكر الإسلامى، من شأنها أن تخفف من حدة التوتر، وتقطع الطريق عل تلك الأطروحات الصدامية.

أمر آخر تجب الإشارة إليه هنا، وهو مجابهة تلك الأطروحات الصدامية من منظار حقوقى، أى: من منظار الحق فى الاختلاف[٢]. صحيح أن كل حضارة تبنى هويتها على قاعدة الاستبعاد، "لكن الذى هو خاص بالغرب ليس الاستبعاد ولا حتى البقاء أعمى تجاه الاستبعاد الذى يمارسه. إن الخاص بالحضارة الغربية فى أفضل ما

(١) بروس لورنس: "تحطيم الأسطورة"، ص ٣٠ .

(٢) من الجهود المميزة فى هذا المجال، ما قام به طه عبد الرحمن فى كتابه "الحق الإسلامى فى الاختلاف الفكرى"، بيروت، المركز الثقافى العربى، ط١، ٢٠٠٥م.

عندها هو أنها تريد -بكل نزاهة- أن تقوم أخيراً بالعكس، وهو أن تكون مقتنعة فى صميمها بأنها تحتوى أكثر مما تستبعد، وأنها فى أحسن الأحوال تقوم بذلك مع احترام الاختلاف"[1]. فالمتعين هنا هو إظهار ما يتم استبعاده عمداً، على الشكل الذى قام به إدوارد سعيد مثلاً فيما يخص الاستشراق الذى قام بتعريفه، بوصفه قام لخدمة أهداف كولونيالية وليس علمًا.

ومن هنا يتعين على بعض أشكال الخطاب الإسلامى، التى تميل إلى عدائية مفرطة تجاه الغرب جملة وتفصيلاً، أن تترفع عن ذلك، وتسلك خطابًا نقديًا معرفيًا يقوم على فهم واستيعاب الأفكار الغربية، والدخول فى حوار نقدى معها؛ حتى يتسنى لنا المضىّ بمنطق الحق فى النقد الإسلامى للأفكار الغربية، وكذلك فيما يخص النقد الإسلامى للمعايير الديمقراطية الليبرالية الغربية، الذى يمثل إعادة طرح مشروعة لأسئلة تتعلق بالإطار السياسى الملائم للمجتمعات الحديثة"[2].

إن النسبية الثقافية التى تلجأ إلى فهم الأنماط الثقافية والأفكار فى سياقاتها الزمانية والمكانية، تفرض التسامح والتفهّم للاختلافات، أو حتى الانشقاقات التى تحصل بين الأنماط الثقافية المختلفة. والحق فى الاختلاف ينبغى أن يكون عنوان تواصل بين الجماعات، فليس المطلوب من العالم بأسره أن يكون نسخة واحدة مكررة، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود:١١٨-١١٩].

أعتقد أن هذه الأفكار من شأنها أن تخفف من حدة التوتر بين الغرب والعالم الإسلامى، ذلك التوتر الذى يحصر العلاقة على الشكل التالى: هيمنة وتفوق من قبل الغرب، ورفض ومقاومة من قبل المسلمين، وفى هذه الحالة يشكل الإسلام "أيديولوجية رفض"، فخروج الطرفين من هذا المنطق التقابلى كفيل بتخفيف حدة التوتر.

(١) هنتنش: "الشرق المتخيل"، مرجع سابق، ص٣٩٨ .

(٢) واصف شديد: "الصورة السلبية"، مرجع سابق، ص٢٥ .

**أما مسلمو الغرب**، فقد أثيرت حولهم مشكلات كثيرة، لا يتسع المقام لمعالجتها، لكن طرحت مقولات عدة تخصهم، فعلى مستوى الحكومات الغربية تم طرح مقولة "الدمج والاندماج"، فقد دفعت التساؤلات والتخوفات عن مدى ارتباطهم بوطنهم الأصلي والجماعات الإسلامية فيه، ومدى ولائهم للوطن الذي يعيشون فيه، إلى اتباع سياسة إدماج، في المقابل أدت اختلافات الثقافة والدين وتطورات الحياة الغربية إلى خلق جملة من التحديات أمام المسلم القادم من ثقافة مغايرة، أو الذي يقلد مرجعية من خارج واقعه الذي يعيش فيه، فنشأت مقولة "فقه الأقليات"، وإيجاد مرجعية خاصة لأولئك المسلمين (مجلس الإفتاء الأوروبي) لإيجاد حلول لتلك المشكلات، غير أن هناك ما تجاوز مسألة الأقليات إلى الاندماج، بحيث يكون المرء مسلمًا وأوروبيًا معًا، على معنى المواطنة[١].

لكن لا بد من القول: إن ثمة عوائق عالقة تواجه مسلمي الغرب، إذ "إن الواقع يشهد بأن الإسلام الأوروبي واقع فريسة للواقع الأمني من جانب، ولشهوة السيطرة من جانب آخر"[٢]، إذ يشكل المسلمون في الغرب مسألة أمنية تثير العديد من المخاوف والقلق لدى الحكومات الغربية، وكذلك تمارس بعض الأنظمة في الشرق محاولات للسيطرة على المسلمين في الغرب عبر وسائل مختلفة، الأمر الذي يزيد من تعقيدات الوضع، فضلاً عن المشكلات الداخلية بين المسلمين أنفسهم، والتي لا تعكس صورة إيجابية عن الإسلام.[٣]

إن مسئولية كبيرة تقع على عاتق مسلمي الغرب في تقديم نموذج صالح للمسلم الفاعل في المجتمع الملتزم بالقيم والآداب، المندمج في محيطه الاجتماعي.

---

(١) نحو ما نجد لدى طارق رمضان في كتابه "To Be European Muslim" (كي تكون مسلمًا أوروبيًا)، وقد عالج جملة من المسائل المتعلقة بالاندماج والولاء والمرجعية في كتابه الآخر: طارق رمضان "مسلمو الغرب ومستقبل الإسلام"، ترجمة: إبراهيم الشهابي، الدوحة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، ط١، ٢٠٠٥م.

(٢) طارق رمضان: "مسلمون ولكن... أوروبيون"، مجلة وجهات نظر، القاهرة، دار الشروق، عدد شباط ٢٠٠٤م.

(٣) انظر: معتز الخطيب "المسلمون في الغرب: من الاغتراب إلى آفاق المشاركة"، مجلة المنار الجديد، القاهرة، عدد١٥، صيف ٢٠٠١م، ص٤٤.

وفيما يخص الإرهاب، فإنه يشكل معضلة شديدة التعقيد، أفردت لها كتابًا خاصًا، وبيّنت أنه لا يمكن أن يُتوقّع أن يخفت صورته دون عمليات إصلاح سياسى وفكرى معًا، يتم من خلاله إزالة أسباب التوتر والاحتقان،وقيام الدولة بوظائفها الأساسية فى صيانة الحقوق وحفظ الدين، بالإضافة إلى تلك الجهود الفكرية التى توفرت على ترصد ملامح فقه العنف وجهّدت فى إزاحة الشرعية عنه.

لكن الجهد الأكبر الذى ينبغى أن يتم التركيز عليه يقع على الإعلام ووسائله، من خلال التواصل المباشر مع المعنيين؛ لأجل صياغة سياسة إعلامية مدروسة للحيلولة دون استمرار تلك التحيزات فى التغطية، ومراقبة وسائل الإعلام والأفكار التى تظهر من خلالها، ومعالجتها بالشكل اللائق بها من خلال توضيح الأخطاء وكشف التحيزات ومخاطبة المعنيين وتزويدهم بالمعرفة اللازمة التى تبين خطأ تصوراتهم، والتواصل مع الأجهزة الإعلامية والقائمين عليها أمر شديد الأهمية لتصحيح الأفكار، وتزويدهم بالمصادر العلمية التى تعينهم على فهم الأفكار والمجتمعات المسلمة، حتى إن لزم الأمر باللجوء إلى القضاء لإيقاف تلك التغطيات المتحيزة أو المجترأة. ولابد من وضع الإعلاميين أمام مسئوليتهم فى استمرار تلك الصور النمطية، التى تنزع إلى المثير والغريب، وتلجأ إلى التعميم والتنميط.

الأمر الذى لا يمكن إغفاله أيضًا هو ضرورة توفير المعرفة المعاصرة، والدراسات الدقيقة عن واقع المسلمين وتاريخهم وعلاقاتهم بالآخرين، وإبراز التطورات التى حدثت فى عالمهم، ومدى التنوع الذى يكتنف عالمهم؛ وذلك من أجل وضع حد لتنميطهم بصور بسيطة وعامة. "فالازدهار فى الدراسات العلمية عن التاريخ الإسلامى سيتغلب فى النهاية على الخوف والجهل، وقد يقودنا -مسلمى الشرق وغير مسلمى الغرب- إلى مستقبل خيّر مشترك"(١).

(١) فرد دونر: "اتجاهات الكتابة الغربية"، ص٢٤٤.

**الخاتمة:**

إن المهمة صعبة، والحلول أشبه بالآمال، ولا بد من الإقرار فى الختام بأن أمامنا ثلاثة عوامل جعلت من تفهم العرب والإسلام -حتى فى أبسط الصور الممكنة- مسألة مشبعة بالدلالات السياسية العالية النبرة، **أما العامل الأول**، فهو: تاريخ التعصب الشائع فى الغرب ضد العرب والإسلام، وهو الذى يتجلى مباشرة فى تاريخ الاستشراق. **والعامل الثانى** هو: الصراع بين العرب والصهيونية الإسرائيلية. **والعامل الثالث** هو: الانعدام شبه التام لأى موقف ثقافى يتيح للفرد التعاطف مع العرب أو الإسلام، أو مناقشة أى منهما مناقشة غير انفعالية.(١)

إلا أن ثمة عاملاً إيجابيًا فى النفق المظلم، وهو: أن علاقات شرق-غرب لم تعد تدور منذ أمد بعيد على الصعيد الدينى(٢)، ومن هنا فإن إبراز العوامل غير الدينية وتحديدًا الثقافية، والفصل بينها وبين الدين، من شأنه أن يقرّب الهوة بين الطرفين، خاصة إذا ما ضُمّ إلى ذلك التأثير فى وسائل الإعلام؛ لإعادة إنتاج الصورة ليس كما يريده الخيال أو الموروث، بل كما يفرضه الواقع المتنوع.

بقى القول: إن هذه الآمال والأفكار لا يحملها أفراد، بل تقوم بها مؤسسات ومراكز دراسات، وجهود ضخمة؛ حتى يكون لها الأثر المرجو فى مستويات متعددة. وأرجو ألا يقف الأمر عند حدود الآمال والتوصيات فقط، فالتوصيات إن لم تنهض بها أيد قادرة، وجهود توازى حجم التحديات، ورجال أكفاء يستجيبون لداعى الواجبّ العلمى والدينى، لن يتغير من الواقع شىء، وإن الأمور إذا ما تُركت سُدًى فسنبقى نلعن الظلام دون أن نوقد ولو شمعة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

(١) إدوارد سعيد: "الاستشراق"، مرجع سابق، ص٧٨.

(٢) هنتنش: "الشرق المتخيل"، مرجع سابق، ص٣٣٥.